

# أزمة الدّراسات الأنثروبولوجية بالمجتمعات العربية واقع وتطلّعات

## The Crisis of Anthropological Studies in Arab Societies: Reality and Expectations.

أ. هشام الحجوجي

باحث في علم الاجتماع، كلية الآداب والعلوم  
الإنسانية، جامعة محمد السادس  
وجدة - المغرب

[hicham19795khalil20145@gmail.com](mailto:hicham19795khalil20145@gmail.com)



## أزمة الدراسات الأنثروبولوجية بالمجتمعات العربية

### واقع وتطلّعات

أ. هشام الحجوجي

#### الملخص:

يروم هذا المقال مقارنة واقع الدراسات الأنثروبولوجية بالمجتمعات العربية، واقعا يعكس عمق الأزمة التي تحاصر الإنتاجات العلميّة في مجال العلوم الإنسانيّة. وسيكون منطلق هذا العمل تقديم تعريف لعلم الأنثروبولوجيا، وطبيعته وأهميته وفروعه، ثمّ الحديث عن علاقة "علم الإناسة" بالعلوم الأخرى. وعبر هاته المداخل سيتمّ استخلاص أسباب الأزمة التي تتخيّب فيها الدراسات والأبحاث الأنثروبولوجية بالمجتمعات العربية، ذلك أنّ عائق الرقابة المؤسّساتية، وهاجس التبعيّة الغربيّة، والبعد عن منطق الروح العلميّة، وتقديس التفسيرات الخرافيّة، وهيمنة الإيديولوجيات المجتمعيّة، كلّها عراقيل ساهمت في نزع الطابع الإبداعي الذي كانت الدراسات الأنثروبولوجيّة تروم تحقيقه. فمن حقّنا كمجتمعات عربيّة أن نؤسّس لأنفسنا صرحا علميّا أنثروبولوجيا، عبره نكشف واقعنا، ونفسر ثقافتنا، ونتطلّع إلى بناء مستقبلنا.

**كلمات مفاتيح:** الأنثروبولوجيا- الروح العلميّة- الموضوعية- التحوّلات الاجتماعيّة- الرقابة المؤسّساتية.

#### Abstract:

This article aims at approaching the reality of Anthropological studies in Arabic Societies, and this reality reflects the depth of the crisis that surrounds the scientific productions in Humanities. As a starting point of this paper, the article defines Anthropology as a science, highlights its nature and reveals the importance of its branches. Then, talking about the relationship between "Study of humans" and the other sciences. Through these entries, we are going to extract the reasons lying behind the crisis facing the Anthropological studies and research in the Arabic societies. We notice the institutional censorship, West dependency obsession, the distance from the logic of the scientific spirit, sanctification of mythical interpretations and the dominance of societal ideologies. All of these obstacles contributed to the removal of the aspect of creativity that Anthropology aims at. Thus, we, as Arab Societies, claim our right to establish a scientific edifice in Anthropology in which we reveal our reality, interpret our cultures and looking forward to establishing our future.

**Key words:** Anthropologist- Scientific spirit- Ideological bias- Social transformations- Institutional censorship.

## 1- المقدمة:

إذا كان الوجود البشري هو وجود اجتماعي، فإن هاته الماهية ينبغي أن تتأسس على ضرورة الإيمان بالعلم ومناهجه من أجل مقارنة هذا الوجود الإنساني ودراسته. ومعلوم أنّ علم الأنثروبولوجيا بوصفه آخر الفتوحات العلمية سينبني على منطق الدراسة الشمولية للإنسان بهدف فهم وتحليل وتفسير واقعه الاجتماعي وإبداعه الثقافي. فالروح العلمية ستفرض على هذا المولود الجديد رصد ماضي المجتمعات وحاضرها، والتنبؤ بمستقبلها دون التقيّد بشروط وإكراهات الزمان والمكان. ولعلّ الحديث عن موضوع الدراسات الأنثروبولوجية ضمن هذا العمل المتواضع سيقودنا حتماً إلى التساؤل عن قيمة النتائج التي توصلت إليها المختبرات الأنثروبولوجية بالبلدان العربية وأهميتها، وهو سؤال مشروع ربّما سيكشف عن واقع الأزمة التي تتخبّط فيها العلوم الإنسانية عموماً وعلم الأنثروبولوجيا على وجه الخصوص.

ومن أجل هذا كلّه، ستكون مقاربتنا لموضوع: " أزمة الدراسات الأنثروبولوجية بالمجتمعات العربية: واقع وتطلعات"، مبنية على استشكالات هي:

كيف تتحدّد ماهية علم الأنثروبولوجيا؟

ما طبيعة هذا العلم؟ وما أهميته؟

ما هي فروع الأنثروبولوجيا؟

ما الفرق بين الأنثروبولوجيا الطبيعية والثقافية والاجتماعية والسياسية؟

ما موقع الأنثروبولوجيا ضمن نظرية المعرفة؟

ولماذا هناك أزمة على مستوى الدراسات الأنثروبولوجية بالمجتمعات العربية؟

## 2- تعريف الأنثروبولوجيا:

لقد تعدّدت التعاريف الرامية إلى التّحديد الماهوي للفظّة "أنثروبولوجيا"، الأمر الذي أدى إلى اختلاف التّصورات والتّمثيلات حولها. ويمكن بداية الحديث عن هذا العلم الجديد بالانفتاح على أصله الاشتقاقي ذي الجذور اليونانية، والمكوّن من لفظتين، إحداهما "أنثروبو" والتي تعني "الإنسان" و"لوغوس" والتي تعني "علم". إنّها "علم الإنسان": أي العلم الذي يهتمّ بالإنسان ويتّخذه موضوعاً للدراسة.

معلوم أنّ الإنسان هو كائن مدني بطبعه، ميّال إلى الحياة الاجتماعية والتنّظيمات السياسية<sup>1</sup>، لذلك فإنّ انخراطه العضويّ ضمن منظومة المجتمع وثقافته يقتضي ضرورة سبر أغوار انتماءاته وإبداعاته وسلوكاته وأعماله. ولن يتمّ هذا الكشف إلّا بتوافر علم ينطلق من الإنسان إلى الإنسان.

1- أرسطو "كتاب السياسة"، ترجمة "محمد سبيلا" عن المصدر: Aristote, La Politique, trad.fr.thibot. PUF. Paris, 1950, P

إنّ هذا العلم يتّخذ من الحياة البدائية والحديثة والمعاصرة مجالاً لدراساته وتنبؤاته، لذلك فهو "علم متطوّر يدرس الإنسان دراسة علمية تركّز على السلوك الإنساني وكلّ الأعمال التي يعدّ الإنسان مصدرها وفاعلها الأساسي"<sup>1</sup>.

وقد تعني الأنثروبولوجيا كذلك "علم الإناسة" الرّاصد لإبداعات الإنسان وصنائه الثقافية. كما يمكن تعريفها بشكل مقتضب وشامل من خلال تحديد الدكتور "سليم شاكّر" لها في قاموسه الأنثروبولوجي بكونها: "العلم الذي يدرس الإنسان طبيعياً واجتماعياً وحضارياً"<sup>2</sup>.

وبذلك تغدو الأنثروبولوجيا علماً ذا طابع شمولي يرمي إلى دراسة الإنسان باعتباره كائناً اجتماعياً يمتلك حضارة وثقافة ممتدّتين عبر الزمان والمكان، تتسمان بالغمى والتنوع. ومن جهة أخرى تروم الأنثروبولوجيا بناء تصوّرات حول ما هو بيولوجي فطري وراثي في الإنسان. "فالإنسان كائن بيولوجي، وهو في الآن ذاته، فرد اجتماعي"<sup>3</sup>.

وفي ختام هذا المحور يمكن أن نستحضر تعريفاً عاماً للأنثروبولوجيا، حيث استقرّ الإجماع حول التعريف التالي: "الأنثروبولوجيا هي علم يدرس الإنسان بغض النّظر عن الزمان والمكان، من أجل تقديم معرفة علمية بهذا الإنسان من شتى جوانبه".

### 3- طبيعة الأنثروبولوجيا وأهميتها:

إذا كانت الأنثروبولوجيا علماً قائماً بذاته تعنى بدراسة الإنسان باعتباره عضواً داخل المجتمع، فإنّ هذا العلم وثيق الصّلة بالعلوم الإنسانيّة التي ظهرت في النّصف الثاني من القرن التّاسع عشر والتي حاولت استلهام الرّوح العلميّة التي سارت على نهجها العلوم الطبيعيّة. وما دام موضوع الأنثروبولوجيا هو الإنسان بالدرّجة الأولى، فإنّ هذا العلم هو أقرب إلى علم الاجتماع، خصوصاً وأنّ الظاهرة الاجتماعية هي ظاهرة جدّ معقدة تتداخل فيها الدّات والموضوع. ولعلّ رهان تحقيق الموضوعيّة بخصوص الدّراسات الأنثروبولوجية هو الذي حرّك العلماء من أجل إضفاء الخصوصيّة والتّميز والدّقة على علمهم الجديد "فمنذ أن ظهرت هذه العلوم، خلال القرن الماضي، بمظهر العلوم المستقلّة عن كلّ تأمل فلسفي، نتيجة لضرورات اقتصادية واجتماعية وثقافية ملّحة أملتّها التّحولات والتّغيرات التي لحقت مرتكزات النّظام المعرفي للثقافة الغربيّة، وهي تحاول فهم الإنسان ودراسته فيما يملكه من طاقات وقدرات قوامها: التّفكير والعمل والإنتاج. إلا أن ظهورها بهذا الشّكل لم يمرّ دون تساؤلات ومضايقات إبستمولوجيّة، بل أحدث هزات قوية في كيان الثقافة الغربيّة، أعقبتها استفسارات ضخمة حول الواقع العلمي المنوط

1- أحمد أبو هلال "مقدمة في الأنثروبولوجيا التربوية"، المطابع التعاونية 1974، الأردن، عمان، ص 9.

2- سليم شاكّر "قاموس الأنثروبولوجيا"، جامعة الكويت 1981، ص 56.

3- كلود ليفي ستراوس "البنى الأولية للقرابة"، منشورات موتون ولاهاي، باريس 1967، ص 3.

بهذا المولود الجديد، حيث ذهب البعض إلى تبنيها واحتضانها واتجه البعض الآخر إلى رفضها والتشكيك في قيمتها العلمية"<sup>1</sup>.

لعلّ هذا المقطع يبرز بجلاء الطبيعة العلمية لعلم الإناسة التّوّاق إلى ملامسة الموضوعية بخصوص دراسة الإنسان وقضاياها الثقافية والاجتماعية المتغلغلة ضمن سيرورة وجوده الفرديّ والجماعي. وهنا تبرز قيمة هذا العلم/المولود الجديد وأهمّيته، الذي عبره، ومن خلاله سيتمّ التّمكّن من فهم واقع الإنسان في جميع مستوياته المادية والروحيّة، الإبداعية والثقافيّة، "وبذلك سينقسم علم الأنثروبولوجيا إلى قسمين أساسيين كبيرين: يبحث الأوّل في الإنسان، ويعرف بالأنثروبولوجيا الطبيعيّة، في حين يبحث الثاني في أعمال الإنسان، ويعرف بالأنثروبولوجيا الثقافيّة/الحضاريّة"<sup>2</sup>.

إنّ الواقع متجدّد، وإنّ التّباين الثّقافي هو قدر المجتمعات، لذلك سترسو سفينة الأنثروبولوجيا عند بوابة التّحوّل والاختلاف في النّظم الاجتماعيّة، وعند مدخل التّشابه والتّطابق على مستوى الخصائص الإنسانيّة للجنس البشريّ. فمنظار العلميّة الأنثروبولوجيّة أبدع صورا ومشاهد جعلت ثقافة الآخر المختلف ومعتقداته وأرائه وأعرافه جزءا من المعرفة الإنسانيّة الكونيّة والتي من خلالها تحقّقت معادلة دراسة الإنسان، ليتمّ حلّ لغز الفهم الموضوعي للسلوك البشري المؤطّر ضمن المنظومة الثّقافية والاجتماعية.

#### 4- فروع الأنثروبولوجيا:

من المعلوم أنّ علم الأنثروبولوجيا يتحرّك ضمن دائرة دراسة الإنسان وذلك من خلال التّركيز على الفعل والسلوك البشريّين، وهذا المراد لن يتحقق إلا في إطار مقارنة شموليّة تستمدّ أسسها من تلك الفروع الأربعة التي تميّز هذا العلم الجديد. وهكذا يمكن التّمييز هنا بين: الأنثروبولوجيا الطبيعيّة، والأنثروبولوجيا الثقافيّة، والأنثروبولوجيا الاجتماعية، والأنثروبولوجيا السّياسية. وهاته الفروع والأقسام تتباين على مستوى الخصائص والمميّزات، إلا أنّها تتقاطع على مستوى الموضوع والأهداف. فكيف يمكن إذن التمييز بين البيولوجي والثقافي والاجتماعي والسّياسي على المستوى الأنثروبولوجي؟

أوّل فرع من فروع الأنثروبولوجيا يمكن الحديث عنه هو: "الأنثروبولوجيا الطبيعيّة"، وتسمّى أيضا الأنثروبولوجيا البيولوجية-العضويّة حيث تعنى بدراسة البنية العضويّة للإنسان. وهذا الفرع هو وثيق الصّلة بمجال العلوم الطبيعيّة وما ارتبط بها من علم الحياة وعلم التّشريح وعلم الفيزيولوجيا (دراسة وظائف الأعضاء). فهاته العلوم تشكّل الإطار العامّ الذي تتحرّك ضمنه دراسات وأبحاث الأنثروبولوجيا الطبيعيّة والتي تتخذ من جسم الإنسان وخلاياه وعظامه منطلقا للعمل الميداني. وما دام الإنسان كائنا

1- الغالي أحرشواو "معوقات التأسيس العلمي للعلوم الإنسانية في الوطن العربي"، مجلة الوحدة، السنة الخامسة، العدد 50، نونبر 1988، ص 19.

2- رالف لنتون "الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث"، ترجمة عبد الملك الناشف، المكتبة العصرية، بيروت 1967، ص 16.

متميِّزا، فإن الأنثروبولوجيا الطبيعيّة ستحاول رصد ظهور وتطوّر سلالته على الأرض، لتستكشف صفاته الخاصّة (السّير منتصبا، صعود الدّرج..) وتقف على قدراته العجيبة (النّطق وإنتاج اللّغة..).

لقد حاول هذا الفرع وفي إطار المنهج المقارن أن يدرس سيرورة تطوّر السلالات البشريّة مكانيا وزمانيا، ليتّخذ من مؤشرات طول القامة ولون الشّعر وشكل الجمجمة وعامل الوراثة محدّدات رئيسيّة لدراسة الإنسان على مرّ العصور. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا الفرع المتميِّز من الأنثروبولوجيا ساعد مجموعة من العلوم على تحقيق نتائج ميدانيّة باهرة، ونخصّ بالذكر هنا "علم الإجمام" بقيادة العالم الإيطالي "لومبروزو" الذي استفاد من نتائج الدّراسات الأنثروبولوجية الطبيعيّة وخصوصا ما ارتبط بها من دراسة لشكل الجمجمة، التي ستكون محدّدا أساسيا لتحديد طائفة المجرمين بالوراثة.

أمّا ثاني فروع الأنثروبولوجيا فهو: "الأنثروبولوجيا الثقافيّة" أو ما يعرف بالأنثروبولوجيا الحضارية على اعتبار أنّ الإنسان هو كائن ثقافيّ بامتياز، منتج للعديد من المظاهر الثقافيّة المادية والرمزيّة. لذلك فقد ركّز هذا الفرع على دراسة الأعراف البشريّة وعادات الشّعوب وتقاليدهم ومعتقداتهم الروحيّة. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تطلّعت الأنثروبولوجيا الثقافيّة نحو رصد الإبداع البشريّ في ميدان الآداب والفنون واللباس والطبخ والزينة والأسلحة والأدوات والمخترعات.

لقد كانت تظاهرات الثقافة مادّة أساسيّة للأنثروبولوجيا الحضاريّة، حيث أنّ مقياس التّطور الحضاري للشّعوب رهين بتلك المنتجات التي تمّ إبداعها. لذلك فإنّ الدّراسات الأنثروبولوجية ستمتدّ لتشمل جميع المجتمعات، البدائيّة والمعاصرة، المتخلّفة والمتقدّمة.

وهناك فرع ثالث من الأنثروبولوجيا يعرف بـ "الأنثروبولوجيا الاجتماعيّة" والذي يركّز على العلاقات الاجتماعيّة والنّسيج الاجتماعي ومظاهر التّضامن والتّلاحم الاجتماعيّين. فهذا الفرع يدرس درجة انصهار الأفراد داخل الجماعة من عائلة وقبيلة وعشيرة. ولعلّ قيمة هذا الفرع المتميِّز تتحدّد في النّتائج المتوصّلة إليها على مستوى دراسة نظام القرابة والزّواج والطّقوس الدّينية وغير الدّينية والمقدّسات والمحرمات في البنية الاجتماعيّة للمجتمعات البشريّة.

إنّ الأنثروبولوجيا الاجتماعيّة تعمل على مقارنة الأنساق الاجتماعيّة من أجل قياس درجة التّفاعل والتّلاحم الذي سيمنّ من موقعة الفرد داخل المنظومة المجتمعيّة، فيتمّ الكشف عن سيرورة التّوازن والاستمرار الاجتماعيّ.

وآخر فرع يمكن الحديث عنه هو: "الأنثروبولوجيا السّياسيّة"، وهو فرع يكتسي أهميّة بالغة خصوصا وأنّه يستمدّ قيمته من الحاجة الماسّة إلى ضرورة مراكمة المعطيات الميدانيّة حول أنظمة الحكم (الملكي، الديمقراطيّ، الجمهوري، الرئاسي، الاستبدادي..). مع ضرورة الكشف عن نظام السّلطة وطبيعتها ومدى حضور وتطبيق مبدأ الفصل بين السّلط الثّلاث التّشريعية والقضائيّة والتنفيذية.

إنّ الحاجة إلى معرفة طبيعة القوانين السّائدة لدى المجتمعات القديمة والحديثة والمعاصرة ستمكّن من رصد العقوبات والجزاءات واستلهاهم أسسها وإرهاصاتها ومصادرها، ومدى تطوّرهما وقدرتها على ضبط

السلوكات البشرية المشينة. لتغدو الأنثروبولوجيا السياسية بذلك خزاناً كاشفاً عن سيرورة السلطة والحكم والقانون على مرّ التاريخ البشريّ البدائي والمعاصر.

## 5- علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الأخرى:

يبدو أنّ الأنثروبولوجيا قد ترعرعت في أحضان الرّوح العلميّة، فقد شكّل ميلادها حدثاً هاماً بشّر باستقلالية هذا العلم القائم بذاته. فمع أواخر نهاية القرن التّاسع عشر ستموقع الأنثروبولوجيا ضمن زمرة نظريّة المعرفة، لتستلم من العلوم الإنسانيّة طموح الموضوعيّة والعلميّة، ومن العلوم الطبيعيّة أسس المنهج والدقّة والصّرامة العلميّة.

إنّ الأنثروبولوجيا وثيقة الصّلة بالسّوسولوجيا، خصوصاً وأنّ موضوعها هو الإنسان الفرد المنصهر داخل المجتمع. كما أنّ هناك علاقة مباشرة تجمع الأنثروبولوجيا بعلم الديموغرافيا وعلم الإحصاء وعلم الاقتصاد. فالدراسات الأنثروبولوجيّة هي سند لمعرفة طبيعة التركيبة الديموغرافية للسكان. كما أنّ المناهج الإحصائية تتأسّس على علاقة جدليّة مع كلّ ما هو أنثروبولوجي. أضف إلى ذلك أنّ صورة البناء الاقتصادي للشعوب والقبائل والمجتمعات تنعكس على واقع البحث الأنثروبولوجي الميداني.

إنّ علم الاجتماع وعلم التاريخ وعلم السياسة وعلم الإجمام وعلم الطبّ وعلم الفيزياء وعلم الكيمياء وعلم الهندسة، تشكّل إلى جانب علم الأنثروبولوجيا أرقى ما وصلت إليه الرّوح العلميّة، والتي توجت نتائجها مسار البحث والدراسة العلميين حتى أصبح الكائن الإنساني، موضوع هاته العلوم، قابلاً للفهم على مستوى سلوكه وأفعاله ومنتجاته المادية والرّمزية من قوانين وأعراف وعادات وتقاليده ونظم.

كما يقتضي المقام هنا الإشارة إلى أنّ علم الأنثروبولوجيا لم يكن ليتحرّك خارج سياق علم الإثنولوجيا وعلم الإثنوغرافيا. فإذا كان الأول يسعى إلى التّنظير والتّعميم والاستنتاج، فإنّ الثاني يهدف إلى التصنيف والتفسير والتحليل والمقارنة، بينما ينحو العلم الثالث نحو جمع المعلومات الكافية عن الظّاهرة المدروسة، ليتمّ وصفها وتوثيقها بناءً على المناهج الميدانيّة التي تمّ اعتمادها من مقابلة وملاحظة بالمشاركة. وبذلك "ستختص الإثنولوجيا والأثنوغرافيا والأنثروبولوجيا بدراسة المجتمعات {الأسنة}"<sup>1</sup>.

## 6- أزمة الدراسات الأنثروبولوجية بالمجتمعات العربية:

نحن كمجتمعات عربيّة أصبحنا نعاني فقراً على مستوى الدّراسات الأنثروبولوجية، فتقدّيسنا لكل ما هو غربي أوقعنا في التّناقض، لأنّنا حاولنا ارتداء عباءة ليست على مقاسنا، فطبيعة مجتمعنا العربيّ تقتضي التّهل من مهل يناسبنا. فقد تناسينا أنّ روح العلم تقتضي الصّرامة والإيمان بالحقيقة باعتبارها مغامرة ينبغي أن يكون لنا استعداد لأداء ضريبتها. "فقد كثّر الحديث في الآونة الأخيرة عن الأزمة التي تمرّ بها العلوم الاجتماعيّة، وخاصة في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعيّة، في الغرب وفي الشرق، وأخيراً في الوطن العربي. ممّا أثار ثائرة كثير من الباحثين في الفكر الاجتماعي، واختلفت ردود أفعالهم تجاه هذه

1- كلمة الافتتاحية لهيئة التحرير لمجلة "الوحدة"، السنة الخامسة، العدد 50، نونبر 1988، ص 4.

العلوم، فأتسم بعضها بالتشكيك في موضوعية وعلمية بعض مناهج البحث المستخدمة في العلوم الاجتماعية، فراحوا ينعنونها بالتحيز الأيديولوجي والبعد عن الموضوعية العلمية تارة، وعدم التزام أصحابها بقضايا الإنسان تارة أخرى<sup>1</sup>.

هكذا، يمكننا القول بكلّ يقين إنّنا اليوم نتخبّط في وابل الأزمة على المستوى الثقافي والأنثروبولوجي والمنهجي، فمتهاتات الهمّ تلاحقنا: "همّ متابعة واستيعاب مظاهر التطور الفكري في العلوم الانسانية والاجتماعية في الغرب، وهمّ رصد وفهم واقع وتحولات الواقع الاجتماعي العربي نفسه"<sup>2</sup>.

تكرّس الأزمة، على مستوى النتائج والأبحاث، مدى بعدنا عن منطق الموضوعية العلمية، فالرقابة المؤسسية لازالت تسود مجتمعاتنا، والإيديولوجيا ظلت دوما محركا خفياً لدواليب البحث والكشف عن كلّ مجهول، فنحن في حاجة إلى فهم ذاتنا وتفسير سلوكياتنا وتقعيد ممارساتنا "فكلّ مجتمع هو في النهاية آلية كلية يتم فيها ومها وعن طريقها استثمار كل الرموز لدعم مكانة اجتماعية أو تبريرها أو الاحتجاج عليها، وأنّ المجتمع هو في آخر التحليل دينامية كلية من الصراع بين الناس أفرادا وجماعات وفئات وطبقات حول تملك الخيرات والسلط والرموز، إما بشكل مكشوف أو بشكل مستتر"<sup>3</sup>.

لقد كان سبب الأزمة التي يعاني منها البحث الأنثروبولوجي والاجتماعي بالأقطار العربية وثيق الصلة بذلك الحنين الدائم إلى قبول كلّ ما وجود به المجتمع الغربي القوي من مناهج وعلوم "فالمغلوب مولع أبدا بالاقتراء بالغالب في شعاره، وزيّه ونحلته، وسائر أحواله وعوائده"<sup>4</sup>.

من جهة أخرى، فإن بوادر الأزمة تتجدّر أكثر حينما ينحو العمل الأنثروبولوجي والاجتماعي نحو إقصاء العقل ومناهجه القادرة على الفهم والتحليل الدقيق والتفسير السببي والتنبؤ، ليغلق الباب أمامه فاتحا المجال أمام قداصة التفسيرات الخرافية والأسطورية: "فالإنسان العربي ما يزال خاضعا في تفسيره للظواهر النفسية والاجتماعية، وحتى الاقتصادية، لطرق غيبية أسطورية تشكل استمرارا للموروث البدائي الغيبي الذي اختزنته القاعدة الثقافية المؤسسة لذهنيته وسلوكه. فما زال الذهن الاجتماعي العربي قادرا ومستعدا لتوليد الخرافات وترويجها، هروبا من التفسير العلمي للواقع، وجريا وراء المعجزة التي ينتظر حدوثها بين الحين والآخر"<sup>5</sup>.

نحن مطالبون إذن بإعادة النظر في منطلقاتنا ومناهجنا وعلاقتنا بواقعنا، حتى لا يكون الاغتراب هو مصير أبحاثنا. فلا ينبغي إنتاج دراسات أنثروبولوجية لا تعكس عمق واقعنا، همّها الأول والأساس تمجيد مناهج غربية ستشلّ رياحها حتما حركية ودينامية توقّعاتنا بخصوص المجتمعات التي لنا شرف الانتماء

1- أحمد سالم الأحمر "وضعية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي بين أزمتي الواقع والفكر"، مجلة الوحدة، السنة الخامسة، العدد 50، نونبر 1988، ص 7.

2- كلمة الافتتاحية، مجلة الوحدة، مرجع سابق، ص 3.

3- المرجع السابق، ص 6.

4- عبد الرحمان بن خلدون، "المقدمة"، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1993، ص 116.

5- إبراهيم بدران سلوى الخماش، "دراسات في العقلية العربية: الخرافة"، دار الحقيقة، بيروت، 1979، ص 307.



إليها "فالمطلوب من الباحث العربي- في العلوم الإنسانية بشكل عام وعلم الأنثروبولوجيا بشكل خاص- ليس فقط الثقافة التاريخية الواسعة، بل أيضا قوّة التخيّل والإدراك لتوضيح الرؤيا في المسائل النظرية والمنهجية بعيدا عن التمهيد بالمعنى الضيق، أي الاعتقاد الغيبي بأوليات تكرارية وآلية في مسارات تطور المجتمعات، وبعيدا كذلك عن حلقة الاغتراب السائدة في المناهج الفكرية العربية والخاصة بالجدل حول الأصالة والحداثة أو الخصوصية والتفرنج. إن تحدي الهيمنة الأجنبية واقع لا يمكن التهرب منه. أما المجابهة الفعالة من زاوية المعرفة والعلم، فإنها لا تأخذ مجراها إلا بتطوير علوم إنسانية أكثر شمولية وإدراكا لو وقع التخلف والتبعية مما يأتي من العلوم الإنسانية في الدول الصناعية، وهذا بدوره لا يتم إلا عن طريق ممارسة المنهج النقدي والالتصاق بالواقع المحلي من خلال منهج ثاقب يسمح بإدراك الواقع إدراكا شاملا وصحيحا"<sup>1</sup>.

كيف يمكن أن نموقع أنفسنا كمجتمعات عربية ضمن سلّم الانتاجات العلمية المرتبطة بالدراسات الأنثروبولوجية؟

نحن أهل الدار، ونحن الأولى بفهم وتفسير واقعنا الثقافي والاجتماعي، فلا ينبغي أن ننتظر من السماء أن تجود علينا بمستشرق غربي أو باحث أجنبيّ يمسك بمنظاره الخاصّ من أجل كشف واقع غريب عنه لا يستطيع أن يتعامل مع ظواهره دون أن يترك بعيدا تمثلاته المفتقرة للموضوعية والحياد. وهذا صحيح، فنحن مازلنا بعيدين عن تيار العلم والمعرفة، ومن ليس له منّا نصيب من تركتهما فليستسلم لما يقدمه الآخرون. إنّنا نعيش واقعا نجهل ملبساته، وننتهي إلى مجتمع استلبنا غيره، فقد صدق "عبد الله العروي" في كتابه "ثقافتنا في ضوء التاريخ" حينما قال: "إن الباحث العربي يجهل محيطه الطبيعي والتاريخي.. ويتغذى هذا الجهل بعدم ازدهار العلوم الإنسانية عندنا.. فأوليات هذه العلوم تلقن، لكن بكيفية مجردة. فينتج عن ذلك ذهنية غير مرتبطة بالواقع"<sup>2</sup>.

## 7- خاتمة:

من البيّن أنّ حاجتنا اليوم إلى دراسات أنثروبولوجية موضوعيّة تزداد إلحاحا، خصوصا وأنّ واقعنا ينفلت من كلّ فهم وتفسير مستلهم لروح المناهج العلميّة الصارمة. فجّل الدّراسات المقدّمة حتى الآن تفتقر للرؤى التي تجعل من دراسة الإنسان على المستوى الطبيعيّ والاجتماعيّ والحضاريّ مرآة لحقيقة مجتمعاتنا، والتي من خلالها سنتمكّن من وصف مظاهر ثقافتنا والتنبؤ بمستقبل أجيالنا. فالهوّة بين الشرق والغرب تزداد يوما بعد يوم، وعلى أنقاض هاته الهوّة يتّسع مجال التّشكيك في قيمة ودقّة وصرامة وموضوعيّة وفاعليّة ونجاعة الأبحاث والدّراسات الأنثروبولوجية العربيّة التي قدّمت حتى الآن.

1- جورج قرقم "معضلات البحث العلمي في العلوم الاجتماعية والاقتصادية في العالم العربي"، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد الأوّل، السنة 1980، ص 29.

2- عبد الله العروي، "ثقافتنا في ضوء التاريخ"، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 1983، ص 176.

ليس المهمّ غزارة الإنتاج، بقدر ما مهمّ كشف الواقع وتجليّاته. فنحن نعيش في رقعة جغرافيّة نجعل عنها الشيء الكثير، فما بالك بامتدادات هذا الواقع الاجتماعيّ المجهول. فأزمة الدّراسات الأنثروبولوجيّة عندنا تعاني من ثقل الماضي الخرافيّ وأيديولوجيّة الواقع السّياسيّ والبعد عن المنطق العلمي. صحيح أنّ أوطاننا تزخر برجال علماء ينتظرون فرصة الكشف والإبداع، لكنّ هؤلاء حتما سيظلّون قابعين أسفل سلّم البحث العلمي ما داموا ينتمون إلى مجتمعات تمسك بمنظار الرّقابة وتؤمن بأنّ هناك طابوهات ومقدّسات ومسكوت عنه وممنوع. فمتى سيزاح ستار الأحيقة من أمام أعيننا، فنقدس الحرية العلمية ونرتقي في غياهيها؟

### المراجع:

- 1- إبراهيم بدران، سلوى الخماش، "دراسات في العقلية العربية: الخرافة"، دار الحقيقة، بيروت 1979.
- 2- أحمد أبو هلال، "مقدمة في الأنثروبولوجيا التربوية"، المطابع التعاونية 1974، الأردن، عمان.
- 3- أرسطو "كتاب السياسة"، ترجمة "محمد سبيلا" عن المصدر (Aristote, la politique, trad.fr.thibot.) (PUF. Paris, 1950, P 6)
- 4- رالف لنتون، "الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث"، ترجمة عبد الملك الناشف، المكتبة العصرية، بيروت 1967.
- 5- سليم شاكر، "قاموس الأنثروبولوجيا"، جامعة الكويت 1981.
- 6- عبد الرحمان بن خلدون، "المقدمة"، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1993.
- 7- عبد الله العروي، "ثقافتنا في ضوء التاريخ"، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت 1983.
- 8- الغالي أحرشواو، "معوقات التأسيس العلمي للعلوم الإنسانية في الوطن العربي"، مجلة الوحدة، السنة الخامسة، العدد 50، نونبر 1988.
- 9- كلود ليفي ستراوس، "البنى الأولى للقرابة"، منشورات موتون ولاهاي، باريس 1967.
- 10- مجلة الوحدة، السنة الخامسة، العدد 50، نونبر 1988.
- 11- مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد الأول، السنة 1980.